

## المثل الديمقراطية والواقع

سيرهاالفورد ماكندر

بقلم: الدكتور محمد السيد غراب  
أستاذ الجغرافيا بجامعة القاهرة

الكشف والرحلات الى مرحلة لبحث المنهجي المنظم . ومن ثم دخولها الجامعة فرعاً من فروع المعرفة والعلم الأصولي . وكان ماكندر أول أستاذ للجغرافيا في أكسفورد ( ١٨٨٧ - ١٩٠٥ ) وفي بريطانيا كلها . وهو في السادسة والعشرين من عمره .

وقد قدم ماكندر تعريفين للجغرافيا ، يختلف أحدهما عن الآخر اختلاف طفيفا فهي « العلم الذي يجعل همه الرئيسي تتبع تداخل الانسان وهو فرد في المجتمع في البيئة التي تختلف من مكان الى آخر » . وهي « علم التوزيع ، أي العلم الذي يتبع نسق الأشياء عامة على سطح الأرض » . وقد تابع ماكندر التعريف الأول فيما بعد ، حيث أعلن أن « ليس ثمة جغرافيا سياسية معقولة rational لا تنبئ على أساس مكين من الجغرافيا الطبيعية . ولا تتبعها » . غير أن هذه العلاقة بين الانسان والطبيعة ليست جامدة « فلانسان يغير بيئته ، ومن ثم يتغير تأثير على الانسان » . وقد عالج - لانبات هذا -

ولد سير هالفورد ماكندر في جينزبره بلنكولنشر عام ١٨٦١ حيث كان والده يمارس مهنة الطب . وتلقى علومه في المدارس الثانوية الخاصة ثم كلية ابسوم وكلية كنيسة انيسج في جامعة اكسفورد ( ١٨٨٠ - ١٨٨٥ ) . وقد أظهر ماكندر ميلا نحو دراسة الجغرافيا والبحث العلمي وهو في جامعة اكسفورد ، واسترعى انتباه جالتون أمين عام الجمعية الجغرافية البريطانية بمحاضرات اضافية كان يلقيها ماكندر عن « الجغرافيا الحديثة » . وكان جالتون حينئذ يتفاوض مع جامعتي اكسفورد وكمبردج حول تأسيس دراسة منهجية متخصصة في الجغرافيا فيهما . ومن ثم فقد ادعى ماكندر لالقاء محاضرة حول ما يعنيه بالجغرافيا الحديثة في الجمعية الجغرافية . فألقى محاضرة بعنوان « مجال الجغرافيا ومنهجها » في فبراير ١٨٨٧ . وقد اعتبرت هذه المحاضرة « ايذانا بفتتاح عهد جديد في الجمعية » كما قال أحد أمناء الجمعية . اذ بها انتقلت الجغرافيا في الجمعية من مرحلة

مرجعاً أساسياً في الموضوع وقتاً طويلاً .

ثم ألقى محاضرة في الجمعية الجغرافية بعنوان متواضع هو « الأساس الجغرافي للتاريخ » في يناير ١٩٠٤ ، ما لبث أن ساقته إليه شهرة لم يكن يتوقعها . وتعتبر هذه المحاضرة ( التي نشرت في مجلة الجمعية الجغرافية Geog journal في عدد ابريل ١٩٠٤ ) أساساً نظريه مشهورة في الجيوبوليطيقا ، ستناولها بالشرح والتعليق فيما بعد ، كان لها أثر كبير ليس في بريطانيا ، بل في القارة الأوروبية أيضاً ، حيث أثارت - بعد عرضها ونميتها في كتاب « المثل الديموقراطية والواقع » كثيراً من الجدل ، وأنشأت مدرسة الجيوبوليطيقا الألمانية التي يعتبرها بعض الكتاب مسئولة عن النزعة التوسعية النازية فيما بين الحربين العالميتين ، ومن ثم كان الاقبال الشديد - مرة أخرى - في أعقاب الحرب العالمية الثانية نحو نشر كتاب هالفورد ماكندر في بريطانيا وأمريكا ، ودراسته .

لقد كانت لدى هالفورد ماكندر نزعة قوية نحو التحليق فوق الجزئيات ، والتصور العالمي للعلاقات المكانية ، انتهت بصاحبها الى تشكيل فلسفة جغرافية سياسية خاصة ، عبر عنها أولاً في محاضراته المذكورة عام ١٩٠٤ ، ثم شرحها وعمقها في كتاب « المثل الديموقراطية والواقع الذي Democratic Ideals and Reality » نشر عام ١٩١٩ ليكون نذيراً لأعضاء مؤتمر السلم المتعقد حينئذ في جنيف ، وليذكرهم بالحقائق الجغرافية الكبرى التي تهيم من حيث لا يشعرون على سير التاريخ وعلى سياسة الدول المختلفة . . . كان ماكندر متنبئاً حين أشار الى القسوة

جغرافية جنوب شرق انجلترا ، وشبه القارة الهندية . وقد عمل ماكندر على وضع أسس علم يحفز دارسيه على فحص العلاقات السببية للمظاهر الطبيعية ، وأن يتجاوز أوجه الشبه السطحية ، ويرى علاقات جديدة .

ويبدو أن ماكندر ذهل من هذا الحماس الذي قوبلت به آراؤه ، رغم أنها كانت شيئاً عادياً في أوساط القارة الأوروبية العلمية حينذاك . ويرجع هذا الى سلامة المنطق وقوة الافق التي عرضها بها ماكندر لمواطنيه .

وقد اجتذبت محاضرات ماكندر كثيراً من المستمعين ، وكان لمحاضراته في الجغرافيا التاريخية وقع خاص ، ولهذا اهتم بها فيما بعد اهتماماً خاصاً . وقد استعد في محاضراته الرئيسية أمام الاتحاد البريطاني لتقديم العلوم عام ١٨٩٥ تعبير الجغرافيا البشرية Anthropogeography لراتزل ، وأعلن أن الجغرافيا البشرية هو أكثر الجغرافيين مثالية واكتمالاً . ورأى أن تقدم الجغرافيا لن يتم قبل أن ينشأ قسم خاص لدراساتها اما تحت اشراف الجمعية الجغرافية ، أو في الجامعة . ونجح في انشاء هذا القسم بجامعة اكسفورد ، ولكي يستكمل شكل الجغرافيا في نظر مواطنيه ، قام برحلة الى شرق افريقية وتسلق جبل كينيا . وكأنما لا يكون المرء جغرافياً قبل أن يكون مغامراً ومكتشفاً ! وقد ضمن ماكندر دراسته في الجغرافيا التاريخية ، في كتابه المعروف « بريطانيا والبحار البريطانية » الذي نشر عام ١٩٠٢ . وهو نتيجة قراءات واسعة وفكر ثاقب . استوعب فيه جغرافية الجزر البريطانية بايجاز معجز ثم عرض للتاريخ البريطاني من حيث علاقته بهذه الجغرافية . وقد ظل هذا الكتاب

التجديد فى اسكتلندة ، ثم حركة ادخار الحرب عام ١٩١٥ - ١٩١٦ . ثم تولى منصب المندوب السامى البريطانى فى جنوب روسيا عام ١٩١٩ - ١٩٢٠ . وأصبح رئيسا للجنة النقل البحرى البريطانى (١٩٢٠ - ١٩٣٩) واللجنة الاقتصادية الامبراطورية ( ١٩٢٦ - ١٩٣١ ) وأخيرا أصبح عضوا فى المجلس المخصوص عام ١٩٢٦ . وتوفى عام ١٩٤٧ .

عندما ينظر المؤرخون فى المستقبل البعيد الى تاريخ عالمنا بشكل محنزل مضغوط ، كما تنظر الى عهد الأسرات المصرية ، فانهم سيصفون القرون الأربعة الماضية من تاريخنا بأنها العصر الكولومبى ، وهو العصر الذى بدأ بكشف العالم الجديد ، والذى نشطت فيه حركة الكشف الجغرافى ، وقد انتهى هذا العصر فى مطلع هذا القرن ، ولم تعد هناك مناطق لم تكتشف ، حتى المناطق القطبية، ارتادها المكتشفون أعضاء رحلات نانسن دسكوت . لقد تمت معرفة أركان العالم جميعا ، ولم تبق الا الدراسة التفصيلية لأجزائه المختلفة ، والتطلع الفلسفى لهذا العالم الجغرافى ويبدو أن هذا القرن قد اختتم عهدا عظيما مليئا بالحركة والنشاط ، خرج فيه الرائد المكتشف، ودعا قومه الى بقعة جديدة لم يكن للناس فى العالم المتمدين بها عهد ، فبعه المبشر الذى يبحث عن أرواح يستقذها ، والغاى الذى يبغي الضم والسيطرة ، والفلاح الذى يبنىوطنا جديدا يفلح أرضه ، والمعدن الباحث عن الثروة الدفينة فى بطن الثرى ، وأخيرا المهندس الذى يبنى ويشيد . كل هؤلاء خرجوا فى اثر الرحالة . والآن لا مكان فى أوربا أو الأمريكتين أو افريقية أو استراليا أو جزر المحيط لدع ملكية جديد .

الكامنة فى « قلب العالم » عندما انتظم فى دولة كبيرة هى روسيا القيصرية ، وقد امتد به الأجل ليعيد نبوءته مرة أخرى أثناء الحرب العالمية الثانية « ان كل الدلائل تشير الى أن روسيا اذا خرجت منتصرة من هذه الحرب ، فانها ستبوء مقعدها كأكبر دولة فى العالم . وفوق ذلك فانها ستكون أقوى الدول العظمى من ناحية مركزها الدفاعى والاستراتيجى . فقلب العالم هو أعظم قلعة طبيعية فى العالم . وانها - لأول مرة فى التاريخ - تجمع من القوة الحربية ما هو كاف عددا وعددا ، (١) . ولا تعدو الحقيقة اذا قلنا ان هذه النظرية تكمن وراء الاستراتيجيات العالمية للدول الكبرى - وعلى الأخص الدولتين العملاقتين فى العالم فى الوقت الحاضر : الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية .

لقد حاضر ماكندر فى جامعة اكسفورد حيث أسس مدرسة الجغرافيا بها ، التى تعتبر أول مدرسة للجغرافيا فى الجامعات البريطانية من ١٨٨٧ الى ١٩٠٥ ، وتولى منصب مدير جامعة ردينج بين عامى ١٨٩٢ - ١٩٠٣ ، وكان أحد مؤسسى الاتحاد الجغرافى عام ١٨٩٣ ورئيسا لشعبة الجغرافيا فى الاتحاد البريطانى لتقديم العلوم عام ١٨٩٥ . وتولى ادارة مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية والسياسية بين عامى ١٩٠٣ و ١٩٠٨ . ثم استاذاً لكرسى الجغرافيا فى جامعة لندن بين عامى ١٩٠٠ - ١٩٢٦ .

ودخل الحياة السياسية العامة ، اذ انتخب عضوا فى مجلس العموم لأحدى دوائر جلاسجو من عام ١٩١٠ الى عام ١٩٢٠ . وأشرف على

لقد تم اكتشاف العالم وتم تقسيمه بين الوحدات السياسية المختلفة . بل ان آسيا شهدت بدورها آخر تحركات فرسان اليرماك والقوزاق في داخلية آسيا البعيدة، بعد أن مهدت رحلات فسكو دا جاء لهذا الفتح . لقد كان العصر الكولومبى عصر توسع أوروبا أمام مقصومه لا تذكر في العالم الجديد ، وداخلية افريقية وآسيا وجزر المحيط الهادى . بينما كانت أوروبا امسيحية فى العصور الوسطى يتهددها خطر القبائل المتبربرة الزراعية من الشرق . هذا التوسع والتعمير قد أوجد موقفا جديدا لم يكن للعالم به عهد من قبل ، فأى تغير اجتماعى كبير سيكون له أثر بعيد فى عالم تماسكت أطرافه سياسيا واجتماعيا واقتصاديا . اذ سيصبح كالقنبلة التى لا تنفجر فى فضاء ، بل بين المباني المزدحمة أو وسط سفينة .

ويبدو أننا فى الوقت الحاضر نجد أنفسنا لأول مرة فى مركز يسمح بطلاق تعميمات جغرافية كبيرة على أحداث تاريخية كبيرة أيضا . نحن لأول مرة فى موقف يسمح بأن نرى الأبعاد الحقيقية للأحداث التى تجرى على مسرح العالم ، ونبحث عن تعليل جغرافى للتاريخ العولمى ، ومن الممكن أن تكون لها قيمة عملية ، حيث انها سترى عن بعد - فى نظرة شاملة - بعض القوى المتنافسة فى السياسة الدولية .

ان العالم ليرنو دائما نحو مثل عليا فى الديمقراطية ، ولكنه فى نفس الوقت يصطدم بواقع ضخم من صنع الطبيعة . وفى عام ١٧٨٩ بزغت من عقول أهل باريس رؤى الحرية والمساواة والاخاء ، ولكن هذه المثالية تجاهلت الواقع فما لبثت أن وقعت فى يد قدرها المحتوم ، نابليون بونابرت ، الذى أعاد النظام الى البلاد ،

ولكنه - لهذا الغرض - نظم القوة الفرنسية ، التى أنكرت على غيرها مبدأ الحرية . وبذلك وقعت فيما يشبه المأساة الاغريقية .

ثم عدت أوروبا الى ما يشبه هذا المزاج من التطوع الى السلم عام ١٨٤٨ ، فاضفت الى مبدأ الحرية مبدأ القومية ، على أن تحمى القومية حرية الشعوب من عدوان المعتدين . غير أن القدر أوجد سمبارك الذى قلب مبدأ القومية ، كما قلب نابليون مبادئ الحرية والاخاء والمساواة وقد الشعب الألمانى ونظمه وهياكله للسيطرة ونشر الثقافة Kultur الألمانية .

وضت شعوب العالم الديمقراطية أنها رأت مندرا كبيرا للحرية يبرز . عام ١٩١٧ ، عندما قمت الثورة البلشفية وأسقطت القيصرية الروسية ودخلت أمريكا الحرب الى جانب الحلفاء . وسارت الثورة الروسية فى مجراها ، ولكننا لا نزال نأمل فى ديمقراطية عالمية . ولقد أضفنا الى مثاليات الحرية والمساواة والاخاء فى القرن الثامن عشر ، وإلى مثاليات القومية فى القرن التاسع عشر ، فكرة عصبة الأمم ( ومن بعدها الأمم المتحدة ) فى القرن العشرين ، واذا نشبت حرب ثالثة ، فستكون أعظم مدى من سابقتها ، فان المثل الديمقراطية اليوم أصبحت عقيدة للجزء الاكبر من الانسانية .

المثاليون هم ملح الارض ، بدونهم يتوقف المجتمع عن سيره ، ويصيبه الركود ، وتضمحل المدنية . غير أن المثالية اقترنت دائما بمزاجين مختلفين ، المثالية القديمة مثل البوذية والصوفية ومسيحية القرون الوسطى اقترنت بنكران الذات كما يمثلها الاخوة الفرنسيسكان الذين وهبوا أنفسهم للطبىر والفقر والخدمة ، أما المثالية

الحديثة ، مثالية الديموقراطية كما دعت إليها الثورتان الأمريكية والفرنسية ، فهي تقوم على تحقيق الذات ، وتهدف الى أن يعيش كل انسان حياة كاملة موفورة الكرامة .

وكان كل مزاج من هذين المزاجين يرتبط تاريخيا بواقع مختلف عن واقع المزاج الآخر . ففي العصور القديمة كانت الطبيعة أقوى من الانسان ، وكانت عناصرها تحد من آفاق طموحه ، ولم يكن أمامه الا أن يسلم صاغرا لارادتها ، وكان القليلون الذين يحصلون على شيء من الحرية ، انما يفعلون ذلك على حساب رق الآخرين . حتى ديموقراطية أثينا لم تقم الا على نظام الرقيق الذين كانوا يعملون خدما في المنازل أو عمالا في المصانع . أما العالم الحالي فهو غني ، قد استطاع الانسان فيه أن يتحرر من ربة الطبيعة ، بل واستطاع أن يسخر قواها لخدمته ، فتطلعت مجتمعات بأكملها ، بشيء من العلم والتنظيم ، الى حياة أفضل ، فيها تقسيم للثروة أدنى الى العدالة ، وتكافؤ للمفروض أمام الجميع . هذه السيطرة على الطبيعة لم تكن وليدة تقدم العلم والمعرفة فحسب ، ولكنها ترجع الى تقسيم العمل وتنظيمه ، وإلى اصلاح أداة المجتمع اصلاحا مستمرا ، وبعبارة أخرى ، فإن الثروة الحديثة ، والرفاهية التي تعرفها المدنية الحالية ، وسيطرة الانسان على الطبيعة وتسخيرها ، كل هذا يتوقف على حسن الإدارة والتنظيم . وليس المجتمع سوى « مشروع » يحتاج لتنظيم سواء المنتجة لإدارته .

فالقوة المنتجة باختصار هي أهم عامل من عوامل الواقع في المدنية الحديثة ، هي أهم من تكديس الثروة ، لأنها هي التي تعمل وتنتج

الثروة . والقوة المنتجة تحتاج لمنظم ، وهذا المنظم هو القائد ، سواء في السياسة أو الاقتصاد أو الصناعة . ولا بد لهذا المنظم من مثل يهتدى به ، ولكنه أيضا يرتطم بواقع . وهذا الواقع هو ما نحاول أن نبينه في هذه الصفحات . وهو واقع جغرافي واقتصادي . غير أن هناك فرقا بين مجرد الدراسة الأكاديمية ، وبين استيعاب الدروس المستفادة من هذا الواقع والتي تدفع الى العمل .

وسأحاول أن أبين المظاهر الطبيعية التي أرى أنها كانت ذات أثر في النشاط البشري ، وأقدم بعض مراحل التاريخ الرئيسية التي ارتبطت بها ارتباطا عضويا . وليس من هدي أن أدقش أثر هذه الظاهرة أو تلك على النشاط البشري ، أو أقوم بدراسة اقليمية ، ولكن أرجو أن أبين أن التاريخ جزء من حياة العالم القصوى . واني لأدرك تماما أنني ساصل الى إحدى جوانب الحقيقة ، وليس عندي أية رغبة في أن أنزلق الى أية مدية منطرفة . فالانسان وليس الطبيعة هو المحرك والدافع والفاعل . غير أن الطبيعة تضبط أفعاله الى حد كبير . واهتماما منصب على العوامل الطبيعية العامة التي تضبط ، وليس على الأسباب التي سیرت موكب التاريخ العالمي . اننا نبحث بكل تواضع عن أحد جوانب الحقيقة أو الواقع .

\*\*\*

لقد ظلت حقائق الجغرافي الرئيسية دون تغير يذكر خلال الخمسين أو الستين قرنا من التاريخ الانساني المعروف . حقا لقد قطعت غابات وجفت مستنقعات ، واتسعت أو انكمشت صحارى ، غير أن معالم القارات ، وحدودها

هذا القول يشل التفكير ، فالعقائد التى تكون الأمم ، وتخرج بها من مجرد تجمعات بشرية ، قد اعتنقت تحت ضغط مؤثرات مشتركة ، وحاجة مشتركة بين هذه التجمعات لمقاومة ظروف قاهرة خارجية ، تضغط على أفرادها جميعا فى وقت واحد ، أى تحت ظروف خطر مشترك ، فلقد نشأت فكرة انجلترا تحت ضغط الغزاة الدان والنورمان ، وفرضت فكرة فرنسا فرضا على قبائل الفرنك والقوط والرومان تحت ضغط الهون فى شالون ، وخلال حرب المائة عام مع انجلترا ، وولدت فكرة المسيحية تحت ضغط الاضطهاد الرومانى ، وأنضجتها - بالنسبة لأوروبا - الحروب الصليبية ، وقبل الألمان الجنوبيون فكرة الرايخ الألمانى على مضض بعد تصادمهم مع فرنسا . هذه النظرة الاوروبية للتاريخ تركز الانتباه على الآراء والمثل وما ينجم عنها من مدنيات ولكنها قد تنقل الحركات الأولية الأخرى ، التى كان لها تأثير على الجهود التى بذلت لتحقيق هذه المثل .

### وجهة نظر البحار :

سنعرض الآن للعوامل المؤثرة فى تاريخ العالم من وجهة نظر البحار . ولنبداً بأقدم مجتمع منظم على شكل دولة وهو مصر ، ولننظر أثر الماء فى حياتها السياسية . تصور واديا عميقا مشقوقا فى هضبة صحراوية جافة ، وهذا الوادى تغطيه طبقة سميكة من الطين الاسود فيها نعبان فضى طويل طريقه مسافة خمسمائة ميل صالحة للملاحة . هذا هو نهر النيل الذى يشق الصحراء الكبرى بعد أن يتملص من الصحور السوداء الضخمة التى تعترض سبيله ، حتى يصب فى البحر المتوسط فى دلتا مروجية واسعة .

والماء ، وسطح الأرض بما فيها من سلاسل جبلية وهضاب وسهول ووهاد لم تتغير الا فى تفاصيل طفيفة . وإن أثر الضوابط الجغرافية على النشاط البشرى لا يتوقف على تلك الحقائق التى نعرفها . وإنما على ما يتخيله الانسان أو يتصوره متعلق بها . فالمحيط هو المحيط منذ الأزل ، غير أن الأهداف البشرية تصوره محيطين : شرقى وغربى ، كل منهما مفصل عن الآخر تماما ، حتى اذا اكتشف الانسان رأس الرجاء الصالح ، وعبره منذ أربعمائة عام ، عاد المحيط فأصبح واحدا مرة أخرى ، لقد كان المحيط واحدا باستمرار ، غير أن المعنى العملى لهذه الوحدة لم يدر بخلد الانسان الا منذ عهد قريب .

لكل عصر تصوره الجغرافى الخاص . ولقد عاشت أجيال لا ترى فى خريطة وسط افريقية سوى فراغ مجهول ، وعاشت أجيال أخرى تخشى سيطرة ألمانيا على العالم منطلقة من أرضها المستعمرة حديثا فى رسط افريقية . أما تصور القرن العشرين الجغرافى فهو يختلف عن التصورات السابقة فى عدة مسائل ، من أهمها استكمال المعرفة الجغرافية بالعالم من القطب الى القطب ، ومن طرف المحيط الشرقى الى طرفه الغربى . لقد تمت عملية اكتشاف العالم ، واكتملت خريطة العالم . ومن ثم فنحن فى وضع أفضل من سابقينا فى تصور قوى التاريخ المحركة .

لقد كان المؤرخ الراحل الاستاذ فريمان يقول ان التاريخ المهم الوحيد هو تاريخ السلالات الاوروبية وسلالات البحر المتوسط . وهذا الى حد ما صحيح ، فمن هنا انبثق الفكر اليونانى والرومانى الذى يسود العالم الآن . ولكن مثل

ان المسافة عبر هذا الوادى من حافة الهضبة الشرقية الى حافة الهضبة الغربية تتراوح بين عشرة وعشرين ميلا . اطرح الحقول الخضراء وراء ظهرك فلا ترى سوى الصحراء . هنا اجتمعت التربة الخصبة والماء الوفير وأشعة الشمس القوية : ومن ثم الخصب الكفيل بتغذية ملايين البشر . وهنا أيضا طريق مائى هادى لا يبعد عن أى حقول من حقول مصر أكثر من اثني عشر ميلا أو أقل ، ومن ثم كانت السفن تهبط نحو الشمال مع انحدار النهر وجريان التيار ، وتصعد جنوبا تزجوها رياح الشمال « الأتينية » . ومن ثم اجتمعت أيضا عناصر الخصب ، وخط المواصلات ، والقوة البشرية وسهولة تنظيمها . وتلك بذور الملك الرئيسية . والآن فلنتقل الى « البحر الكبير » أو

البحر المتوسط ، حيث نفس عناصر القوة الطبيعية مثلما هى فى مصر ، بل على مقياس أكبر ، ومن ثم لم تقم مملكة مصر فقط ، بل الامبراطورية الرومانية التى تعتمد على طريق مائى كبير يمتد من الساحل الفينيقى مسافة ألفى ميل غربا حتى مضيق جبل طارق . وبينما كانت عناصر السكان فى مصر متجانسة ، اذ بهم متنوعون فى حوض البحر المتوسط ، بعضهم زارع راع ، وبعضهم ملاح يحمل التجارة . وتدل الأبحاث الحديثة على أن البحر الايجى - أو البحر الرئيسى كما يسميه الاغريق - كان المدرسة التى خرجت الملاحين فى التاريخ القديم . فهو بحر يغص بالجزر الصغيرة التى كان الملاحون يقفزون من واحدة منها الى الأخرى قبل أن يتعلموا المغامرة فى خضم البحر الكبير بعد ذلك .

وبدأت روما حصنا منيعا على رأس جسر

على نهر اليبتر ، ولكنه يشرف على أمة صغيرة من الفلاحين تزرع سهل لا تبعد عن العريض بين جبال الألبين والبحر . وكانت روما تجمع بين كونها جسرا عبر الجبال الى الجانب الآخر من شبه الجزيرة ، وميناء تنتهى إليها السفن التى تمر عبر البحر المتوسط ، وفوق ذلك كانت تملك انتاج الحقول الوفير من سهل لاتيوم . وقد استطاعت روما أن تهزم قرطاجة ، وبذلك وحدت الحوض الغربى للبحر المتوسط ، ثم عبرت الفياق الرومانية مقدونيا الى آسيا الصغرى ووحدت الشرق الاغريقى والمغرب اللاتينى ، ومن ثم استمر البحر المتوسط طوال خمسة قرون بحرا مغلقا ، ومن ثم أيضا كانت روما امبراطورية قارية ، ولم تكن تملك أسطولا حريا قويا لعدم حاجتها اليه .

بعد أربعة قرون من القوة البرية ، بدأت روما فى التدهور ، ولم تعد البحار التى تحيط بها مغلقة . فاقحمها النورز من فيورداتهم فى بحر الشمال ، وغزوا بحر الشمال ، وداروا حول بسكاي واقتحموا مضيق جبل طارق ، وأحاطوا بسفنهم شبه الجزيرة الكبيرة - أوروبا ، من الشمال والغرب والجنوب . واستولوا على مواطىء أقدام لهم فى بريطانيا شمالا وصقلية جنوبا ، بل وغامروا بغزو حواف شبه الجزيرة فى نورمانديا وجنوبى ايطاليا .

وفى نفس الوقت تقريبا خرج حداة الابل من بلاد العرب واستولوا على سوريا ومصر وقرطاجة ، أى الولايات الشرقية والجنوبية للامبراطورية ، ثم عبروا البحر الى صقلية ، واستولوا عليها ، كما استولوا على جزء كبير من شبه جزيرة ايبيريا . ولم يعد البحر المتوسط

الشریان الرئيسی للامبراطورية، بل أصبح خندقاً مائياً ضخماً يفصل بين المسيحية والاسلام . وكما حققت قوة روما البحرية نصرها على قرطاجه ، كذلك حققت قوة العرب البحرية نصرهم على روما .

وظلت المسيحية في أوروبا ألف عام حيصة أشباه الجزر اللاتينية وملحقها في الجزيرة البريطانية . لقد كانت روما الكلاسيكية امبراطورية رومية<sup>(١)</sup> ( بحر متوسطة ) بمعنى الكلمة ، لم تبعد كثيراً عنه، وقفت عند حد الراين والدانوب ، وكان اقتحام البحار من شمال أوروبا وجنوبها هو الذي كتلها وجعلها شبه جزيرة واحدة بمعنى الكلمة . وكان على أوروبا أن تنظم ردود فعلها ضد الضغوط التي تعرضت لها من الشمال والجنوب ، والا لانمحت منها المسيحية . ومن ثم أقام شارلمان امبراطورية على جانبي الراين ، نصمها لاتيني ونصفها جرمانى اللغة ، ولكنها جميعاً تحت لواء كنيسة واحدة تتكلم اللاتينية . وكانت هذه الامبراطورية قاعدة الحروب الصليبية ، التي سارت طيلة قرنين من الزمن في اتجاهين : اتجاه بحرى من البندقية وجنوة نحو يافا وعكا على الساحل السورى من ناحية ، واتجاه برى من المجر عبر ممر مورافا ومارتزا الشهير الى القسطنطينية ، ومنها الى آسيا الصغرى فسوريا .

وهكذا تجمدت شعوب المدينة اللاتينية في ليل طويل من العصور المظلمة ، ظلت فيها حيصة القارة ، يحيط بها المسلمون من الجنوب والشعوب التارية من الشرق . ولم تستطع أوروبا أن

تخرج من هذا المحبس الا فى القرن الخامس عشر عندما أصبح الوقت مهياً للمغامرات البحرية الكبرى ، وارتاد الأوروبيون البحر المحيط ، ونشروا أوروبيتهم فى العالم أجمع . ويجدر بنا أن نقف قليلاً لتأمل البيئة الفريدة التي نمت فيها بذور المدنية الأوروبية الحديثة ، والتي أعطت هذه القارة قوة التحمل والصمود التي جعلتها تقود العالم الآن . وليست أوروبا سوى ركن صغير من الجزيرة الكبرى التي تشمل آسيا وأفريقيا ، غير أن مهد المدنية الأوروبية لم يشمل سوى نصف أوروبا - النصف اللاتيني وأشباه الجزر - والجزر التي تحيط به . وكانت الصحراء الكبرى تحمى هذه القارة من الجنوب ، وهي صحراء عريضة ليس من السهل اختراقها على ظهور الابل الا خلال أشهر غير قليلة ، وقد حمت هذه الصحراء أوروبا من تغلغل الدماء الزنجية . أما الى الغرب فيقع المحيط العظيم الذي ظلت البشرية أزماناً طويلة تهاب الملاحة فيه . وإلى الشمال الشرقى غطاء من غابات الصنوبر لا حد له ، تقطعها أنهار تصب اما فى البحر المتجمد شمالاً ، أو تصب فى داخل القارة ، مثل الأنهار التي تصب فى بحر قزوين الداخلى ، ولم يكن نمت طريق متفتح الى العالم الخارجى سوى طريق الجنوب الشرقى ، غير أن هذا الطريق كانت تقف دونه سدود بشرية ، من القرن السابع الى القرن التاسع عشر ، هى العرب والأتراك .

ومن ثم كانت أوروبا فكرة ذات حدود واضحة ، بينما هى بالنسبة للقارى مجرد ملحق لآسيا . كانت عالماً قائماً بذاته ، يمتاز بالخصب ، وبالممرات المائية التي تكتنف أجزائه المختلفة ، فتشعرهم بالألفة التي تجمع أبناء الأسرة الواحدة.

(١) نقصد بتعبير رومى ما يسمى Mediterranean ، نسبة الى بحر الروم أو البحر المتوسط ( م . غلاب )



بعد فترة سكون كانت السيادة فيها لدول البحر  
استمرت ألف سنة .

وكانت نتيجة ذلك كله ظهور قوة بريطانيا،  
دولة بحرية كبرى ، تمخر أساطيلها من جزرها  
في شمال المحيط الأطلنطي الى جزر اليابان في  
شمال المحيط الهادى ، وكان لهذه الأساطيل  
قواعد على طول الطرق الملاحية الكبرى ، سواء  
حول افريقية ، أو عبر قناة السويس . وظهرت  
قيمة القوة البحرية في السرعة الفائقة التي  
استطاعت فيها بريطانيا نقل جنودها الى جنوب  
افريقية أثناء حرب البوير ، وفي وقوف الاسطول  
البريطاني الى جانب القوة الامريكية في ماينلا  
( الفيلين ) أثناء الحرب الاسبانية الامريكية ، اذ  
تأكدت حينئذ معنى القوة البحرية ، والمرة الثالثة  
عندما أحكمت الحصار حول الحرب الروسية  
اليابانية ، وبذلك حافظت على سياسة الباب المفتوح  
في الصين . وفي كل حالة من هذه الحالات ،  
كانت القوة البحرية هي الفيصل ، وهي التي  
غيرت مجرى التاريخ . والحرب العالمية الأولى  
نفسها كانت مثالا لأثر التفوق البحري في سير  
الحروب . لقد تأكد لأول مرة وجود جزيرة  
عالمية كبرى ، يمكن أن تدور حولها الأساطيل ،  
ويمكن أن يكون لصاحب أقوى أسطول السيطرة  
عليها .

ولننظر الآن الى جزيرة العالم هذه التي  
أدركتها البشرية حديثا . انها تقع على كنف  
العالم ، بالنسبة للقرب الشمالى ، واذا قيست من  
القرب الى القرب على خط طول متوسط بالنسبة  
لآسيا فاننا نجد ألف ميل من البحر المغطى بالجليد  
حتى شواطئ سيبيريا الشمالية ، ثم خمسة آلاف  
ميل من اليابس حتى الطرف الجنوبى للهند ،

وكانت لهذه المسالك المائية أهمية خاصة ، ولا  
سيما في عصر حلا من الطرق البرية ( بعد أن  
تخربت الطرق الرومانية ) فهي تتفرع وتتشعب  
بين أشباه الجزر والجزر العديدة التي تميز  
غرب أوروبا .

وقد سعد عملاق هامان على فكت الحصار  
المضروب على أوروبا العصور الوسطى ، العامل  
الأول هو أن العرب والأتراك ، وقواعدهم هي  
الواحات والأقاليم شبه الجافة ، لم تكن لديهم  
موارد ضخمة من القوى البشرية ، فكان عددهم  
محدودا دائما ، بينما كان النورز البحريون  
المغامرون سرعان ما يندمجون في سكان السهول  
الخصبة في انجلترا وفرنسا وشمال ألمانيا ،  
ويغذون أعداد السكان في غرب أوروبا ، ولم  
يعد النورز الوثنيون خطرا دائما على غرب  
أوروبا ، ومن ثم استكملت أوروبا المسيحية  
جهودها نحو الخطر القابع في الجنوب الشرقى  
للقارة .

والعامل الثانى هو أن هؤلاء النورز حملوا  
بذور المغامرات البحرية ، وسرعان ما تبنى  
البرتغاليون فكرة البحث عن طريق بحرى الى  
الهند ، ونشأت مجموعة من الملاحين مثل  
كولومبس وفاسكو داجاما ارتادوا البحر المحيط ،  
فاكتشف العالم الجديد ، وأهم من هذا تمت  
الملاحة حول الجزيرة العالمية الكبرى ، ودارت  
سفن البرتغال حول رأس الرجاء الصالح ،  
وظهرت سفنهم في بحر العرب ، ونافست سفن  
العرب في المحيط الهندى . وصادف هذا فترة  
ضعف حلت بالعالم الاسلامى ، فلم يعد لأوروبا  
منافس قوى في « جزيرة العالم » ، وظهرت قوة  
الدول البحرية وسيطرتها على البحار لأول مرة

ثم سبعة آلاف من المجر حتى غطاء الجليد الذي يغطي القارة القطبية الجنوبية . ولكن اذا قيست على خط طول يمر ببرتغال ، فانها تبلغ نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة ميل ، والمسافة بين باريس وفلاديفوستك ستة آلاف ميل ونفس المسافة تفصل بين باريس ورأس الرجاء الصالح . ولولا وجود المحيط المتجمد الشمالى لاستطاع الملاحون من وقت طويل الدوران حول هذه الجزيرة .

وتنتهى جزيرة العالم من الشمال الشرقى والشمال الغربى بمعايير تصلها بالأمريكتين ، وقد تبدو لأول وهلة أوجه شبه بين جزيرة العالم ( القديم ) والأمريكتين ، ولكن فى الحقيقة مثل هذا التشابه سطحى وغير حقيقى . ان شواطئ افريقية الشمالية والشرقية لا تفصلها فى واقع الأمر عن آسيا أو أوروبا ، بل هناك استمرار بشرى بين الصحراء الكبرى وصحراء شبه جزيرة العرب ، وبين شعوب كل من القارتين على جانبى هذا النطاق ، كما أن هناك مثل هذا الاستمرار بين شعوب سواحل البحر المتوسط الأوروبية أو الافريقية .

اننا نستطيع أن نعتبر قارات العالم الجديد، الأمريكتين وأستراليا مجرد توابع لجزيرة العالم وليس هناك سوى محيط واحد يغطي ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، وقارة واحدة تغطي سدس الكرة الأرضية ، وجزر أخرى عديدة ، أكبرهما أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية تحف بجزيرة العالم . وهذه الجزيرة اذا ارتبطت أجزاؤها بعضها ببعض بوسائل المواصلات الحديثة لكونت حقيقة كبرى تعتمد على موارد هائلة للثروات الطبيعية - ان أكثر من ١٤ جزءا من ١٦ جزءا من البشرية تمسكن هذه القارة الكبرى ، ويضاف

اليهم جزء آخر من ١٦ جزءا فى الجزر البريطانية واليابانية . ولا يعيش فى قارات العالم الجديد - بعد أربعة قرون من الهجرة سوى جزء واحد من ١٦ جزءا . ولو استطاع الغرب الاوسط من الولايات المتحدة أن يطعم مائة مليون أخرى من البشر ، فان وسط آسيا كفى بأن يضيف نفس الاضافة الى سكانه ، واذا ازداد سكان أمريكا المدارية فى المستقبل ، فسيزداد أيضا - بنفس النسبة - سكان افريقية المدارية . أى أن هذه النسب السكانية بين جزيرة العالم وتوابعها ستظل محفوظة فى المستقبل .

لقد أدرك الأمريكيون منذ عهد ولسون أنهم لا يستطيعون العزلة وحدهم بعيدا عن مسائل أوروبا ، وعليهم أن يكفوا عن التفكير فى أوروبا وحدها منفصلة عن بقية الجزيرة الكبرى ، جزيرة العالم ، التى تكون جزءا منه .

#### وجهة نظر القارى :

لقد انتهى عصر الكشف الجغرافية الكبرى باكتشاف سواحل العالم ، وتأكدت وحدة البحار ، ولقد تمت مرحلة شبيهة بذلك ، تأكدت بها وحدة قارات العالم القديم من الداخل . ولننظر الآن الى تاريخ أوروبا باعتبارها ملحقة بآسيا والتاريخ الآسيوى . فتاريخ أوروبا بوجه من وجوهه ليس سوى نتيجة الصراع المبرر ضد الغزو الآسيوى .

وتتصل أوروبا بآسيا من ناحية الشرق ، أى من ناحية روسيا . التى تعتبر أكبر تناقض فى خريطة أوروبا السياسية . وهى وحدها تحتل نصف مساحة القارة ، بينما غرب أوروبا مزدهم بعدد كبير من الدول صغيرة المساحة . وهى عبارة عن سهوب مموجة تتصل نحو وسط

آسيا ، بينما غرب أوروبا مضرسة شديدة التضررس ، جزر وأشباه جزر • ويبدو لنا لأول وهلة أن جغرافية روسيا تتفق مع تكوينها السياسى ، سهول واحدة ، سهـ صويل فارس واحد ، وصيف دفيء واحد ، أى تجانس تام فى السطح والمناخ • غير أن الخرائط التاريخية المتابعة تقص علينا شيئا آخر • فارتباط دولة روسيا بالسهل الاوروبى الشرقى مسألة لا ترجع الا الى القرن الماضى فقط • وقبل هذا الوقت كانت توجد مجموعتان سياسيتان فى هذا السهل الكبير ، احدهما تحتل غابات الشمال والشمال الشرقى ، والأخرى تحتل استبس ( حشائش ) الجنوب والجنوب الشرقى • ويتصل بينهما خط يمتد من نهاية جبال الكربات الشمالية ويستمر شمالا وشمالا بشرق حتى قرب نهاية امتداد جبال أورال الجنوبية • وتقع موسكو الى الشمال قليلا من هذا الخط داخل نطاق الغابات • وكان هناك برزخ مفتوح بين البحر البلطى فى الشمال وبين البحر الاسود فى الجنوب عرضه ٨٠٠ ميل • ويضاف الى هذا امتداد لاقليم الاستبس فى سهل المجر ، بين الكربات وجبال الألب ، يطلق عليه اقليم الملتقى ( البوستا ) •

لقد نشأت روسيا وبولنده القديمتان فى كنف الغابات • أما الاستبس المكشوفة فكانت بابا مفتوحا نحو المجهول الآسيوى • بابا يقع بين جبال أورال وبحر قزوين ، تابعت عبره هجرات الشعوب الرعوية من القرن الخامس الى القرن السادس عشر ، هجرات الهون والآفار والبلغار والمجر والخزر والباتزيناك وانكومان والمغول والقلمق • وقد استطاع الهون بقيادة أتيلأ أن يوطدا أقدامهم وسط البوسنا Russ

فى نهاية الاستبس على ضفاف الدانوب ، ومن هذه القاعدة وجهوا الضربات شمالا وغربا وجنوبا بغرب ضد كل الشعوب الأوروبية المستقرة ، وتكون هذه الضربات المتوالية ، وتلك الغزوات والهجرات جزءا كبيرا من تاريخ أوروبا ، فالانجليز والساكسون - تحت ضغط هذه الهجمات - اضطروا الى عبور المانش حيث أسسوا ملك انجلترا وقوميتها ، والفرانك والقوط والرومان اضطروا الى التكتل صفا واحدا فى معركة شالون ضد الغزاة الآسيويين ، ومن ثم صنعوا قومية فرنسا • وعندما سقطت اكويلأ وبادوا نهضت البندقية ، بل ان البابوية اكتسبت صيتا كبيرا عندما استطاع البابا ليو أن يقف أمام أتيلأ فى ميلان •

وجاء الآفار بعد الهون ، وتأسس الرايخ الشرقى أو النمسا حدا شرقيا أمام هؤلاء الرعاة • وأسس شارلمان فينا المحصنة بعد غزواته العديدة فى وجه الآفار • ومن بعد الآفار قدم المجر ، الذين شنوا غزواتهم المستمرة من سهل هنغاريا • كما أسس البلغار - وهم من رعاة الاستبس أيضا - طبقة حاكمة جنوبى الدانوب ، واحتل الخزر جنوبى روسيا ، وكان الخزر أكثر الشعوب الرعوية احتكاكا بالروس ، وأكثرها تأثيرا فيهم • بل لقد كان العرب فى العصور الوسطى يسمون بحر قزوين ببحر الخزر • وأخيرا وصلت جحافل جديدة من منغوليا ، وخضعت روسيا فترة قرنين من الزمان لخانات مغول الكيشاق أو الاستبس ، قبع خلالها الروس داخل نطاق غاباتهم ، بينما يمد الخان امبراطوريته من وسط آسيا حتى جبال الكربات • وبذلك تأخر تكوين روسيا السياسى فى الوقت الذى كانت فيه

بنية القوميات الأوروبية تستكمل عناصرها •  
وعلى أن تذكر أن معظم أنهار روسيا تتبع  
من الشمال وتصب في الجنوب ، في بحر قزوين  
والبحر الأسود ، وقد حملت هذه الأنهار مع  
دعاة المسيحية ، كما حملت بعض الغزوات  
النوردية ، ولكن هذه الغزوات أحدثت قليلة  
لا تنفي القاعدة العامة •

لقد خرجت سلسلة من الغزاة الفرسان من  
آسيا عبر البوابة الشرقية الواسعة لأوروبا نحو  
جنوب روسيا والمجر ، مدة ألف سنة ، وكانت  
تلك الغزوات هي سر تاريخ الروس والألمان  
والفرنسيين والإيطاليين والاعريق البيزنطيين •  
كما أثارت تلك الغزوات ردود فعل قوية ، وذلك  
لأن قوة الفرسان كانت تتحطم عندما يخرجون  
من الاستبس وكانت تتبدد بين أشجار الغابات  
وممرات الجبال •

كانت أوروبا تقع بين المطرقة والسندان ،  
بين غزوات الهون والتتار ، فرسان البر من  
الشرق ، وبين غزوات الفينكج • قراصنة البحر  
من الشمال ، غير أن هؤلاء الآخرين كانت  
حركتهم محدودة بحدود السواحل البحرية •  
ولكن هذين الضغطين لم يكونا شاملين ، بل  
شكلًا فقط عاملاً مثيراً ومنشطاً للعمل • فتحت  
ضغط القراصنة ، اضطرت إنجلترا وفرنسا  
للاتحاد ، وتحت ضغط فرسان الاستبس اضطرت  
ألمانيا للاتحاد •

ولم يكن الهون هم أول من دفع الاستبس  
من غزاة ، فلقد سبقهم الاسكيديون الذين  
وصفهم هومر وهيرودوت ، بأنهم شعب عريض  
الرأس ، يشرب اللبن ويركب الخيل •  
قلب العالم الآسيوي جاف مقفر • ولذلك

لم يكن غريباً أن يسكن ثلثا العالم القديم في  
مساحات محدودة على حوافه • إذ يمتد حزام  
من الأرض القفر من الصحراء الكبرى الى وسط  
آسيا ، يفصل شمال افريقية ( البحر المتوسط )  
عن افريقية الزنجية ، والصحراء في الحقيقة هي  
حدود أوروبا الجنوبية •

مساحة كتلة أوراسيا بين المحيط والصحراء  
٢١ مليون ميلاً مربعاً ، أي نصف مساحة الكرة  
الأرضية باستثناء الصحاري • والأنهار قليلة  
الجدوى في الجزء الأكبر من آسيا ، فأنهار  
الفلوجا وسيحون وجيحون تصب في بحر قزوين  
داخلة ، وأنهار أوبى وينسي ولينا تصب في  
المحيط المتجمد الشمالي •

ووسط آسيا وطن سكار مخلخلين ، رعاة ،  
فرسان خيل وحداة ابل ، يتجولون وسط افليم  
حشائش شبه جاف ، أو أشباه صحاري ، لا تعمرها  
الا واحات قليلة متناثرة يمتد أربعة آلاف ميل من  
بوستان المجر حتى جبال جوبي الصغرى في  
منشوريا • ووسط العالم القديم هذا لا تقطعه  
أنهار تصب في المحيطات ، أي أنهار تجارية •

إن الزوبعة التي هبت على أوروبا من  
منتصف القرن الرابع عشر بدأت من هضاب  
منغوليا بقيادة جنكيز خان ، وقد وصلت إحدى  
جحافل التتار الى بولندة وسيليزيا ومورافيا والمجر  
وكرانيا والصرب ، واحتل جنكيز خان كيشاق  
( الاستبس ) من بحر آرال حتى سفوح جبال  
الكربات ، واتحدت فرقة أخرى جنوب بغرب  
من بحر قزوين وهندكوش الى فارس والعراق  
ثم سوريا • وفرقة ثالثة ضربت نحو شمال الصين  
( كاتاي ) ثم جنوب الصين في عهد تيمورلنك •  
هذا هو قلب العالم ، كان يموج دائماً

بالحركة والاضطراب ، ويرسل الغزوات ويدك  
عروا المدينت المستقرة على حوافه ، وذلك  
بفضل ما أوتى من قوة ضاربة متحركة . لقد  
أحست حواف العالم القديم بقوة الاستبس ،  
أحست به روسيا وفرنسا والهند والصين ، التي  
خضعت مباشرة للأسر الحاكمة المغولية ، أو  
دفعت لها الجزية ، وقتاً أو آخر خلال تاريخها  
الطويل . فلقد خضعت الصين عدة مرات لغزوات  
قدمت إليها من الشمال ، كما خضعت الهند عدة  
مرات أيضاً لغزوات دخلتها من الشمال الغربي ،  
وكذلك فعلت فارس ، وقد سبق الترك السلاجقة  
والتوسط ، والأحمر ، والخليج الفارسي ( أى  
إقليم الشرق الأدنى ) .

الى الشرق والجنوب والغرب من قلب  
العالم heart land منطقة هامشية على شكل  
هلال كبير ، يستطيع ربانة السفن الهبوط اليه ،  
والالتفاف حوله ؛ والغريب أن هذه المنطقة  
الهامشية تتفق مع مناطق الديانات الكبرى ،  
البوذية والبرهمانية ، والاسلام والمسيحية . الأولى  
والثانية فى العالم المسمى ، شرقاً وجنوباً ،  
والرابعة فى أوروبا التي يسقط عليها المطر طول  
العام ، أما الثالثة فتتفق مع منطقة البحار الخمسة ،  
الشرق الأدنى ، تقتصر الى المطر الغزير ، ولذلك  
كانت قليلة السكان . وهى تجمع بين صفات  
الهامش النخصب والقلب المنقر ، لا تغطيها الغابات ،  
وتكتنفها الصحارى ، ولذلك كانت صالحة  
لحركات البدو . ولهذا السبب ، ولأنها هامشية  
تطل على بحار وخليجان وتجرى فيها أنهار محيطية  
تصب فى بحار ( دجلة والفرات والنيل ) .  
قامت فيها قوى بحرية . ومن ثم أيضاً كانت  
موطن امبراطوريات بحرية تعتمد على قواعد

زراعية كبيرة السكان كانت تقوم من حين الى  
آخر فى التاريخ ، مثل مصر وفينيقيا وكريت  
وروما ، بل والدولة العربية الاسلامية . وكانت  
واحات مصر وبابل ذات اتصالات بحرية مع بقية  
العالم المتمدين فى البحر المتوسط والهند . ولكن  
هذه الامبراطوريات - كما يجب ان تتوقع -  
كانت فى متناول يد غزوات الاسكيذيين والترك  
والمغول من وسط آسيا ، أو مطعمها لاهل البحر  
المتوسط للسيطرة على الممرات المائية التى تصل  
بين الشرق والغرب وهذه هى نقط ضعف هذه  
الحلقة من حلقات المدينت القديمة . فعندما كان  
الضعف يدب فى مصر أو بلاد الرافدين ، كان  
بدو الاستبس يستجمعون قواهم ، ويقفزون من  
ايران وآسيا الصغرى الى سوريا ثم الى مصر .  
كما كانوا ينفذون من آسيا الصغرى عبر البوسفور  
والدرديل الى المجر .

وينبغى أن نشير الى الفرق بين العرب  
والترك فى سيطرتهم على الشرق الأدنى . فالعرب  
فرع من الشعوب السامية ، سكان الفرات  
والنيل وعدد من الواحات الصغرى ، استخدموا  
وسائل الحركة المتوافرة لديهم ، الخيل والابل  
من ناحية والسفن من ناحية أخرى ، فى خلق  
امبراطورية كبرى . وكانت أساطيلهم تسيطر  
وقتما على البحر المتوسط حتى اسبانيا ، وعلى  
المحيط الهندي حتى جزر الملايو . وقد حاول  
العرب ، من هذا الموقع الاستراتيجى بين المحيطات  
الشرقية والغربية ، فتح كل الأراضى الهامشية  
للعالم القديم ، مقلدين فى ذلك الاسكندر ،  
وسابقين لنابليون . أما القبائل الطورانية الوثنية  
فى قلب آسيا القلق ، فكانوا غرباء عن ذلك تماماً ،  
لا يشبهون العرب أو الاوروبيين أو الهنود أو

الصينيين ، محطمين للحضارة لا بناء لها أو حافظين .

### المنافسة بين البر والبحر :

الحركة فى المحيطات هى المنافس الطبيعى للحركة فى وسط القارة ، والسفينة التى تمخر عباب الماء تقابل الحصان أو النجم الذى يقطع مسافة الفلوات . وقد قامت على الأنهار الملاحة التى تصب فى البحار والمحيطات حضارات رائعة، مثل حضارة الصين على نهر يانجتسى ، والنهر على نهر الجانج ، وبابل على الفرات ، ومصر على النيل . وكانت الملاحة فى البحر المتوسط أساس نشأة الدول البحرية : الفينيقيين والاعريق والرومان والعرب . وكان الفايكنج يسيطرون على ملاحة سواحل شمال أوروبا وغربها .

وتكمن أهمية اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح . تكمن فى أنه ربط لأول مرة الملاحة فى غرب أوروبا بالملاحة فى المحيطات الشرقية ، ربط الأطلنطى بالهندي والهادى . وبدلت منح الملاحون الكولومبيون ( الذين ينتمون الى عصر كولمبس ) الحضارة الغربية الوليدة سهولة عظمى فى الحركة فكانت السفن الأوروبية تستطيع أن تظهر فى أى مكان ، على أى ساحل ، فالبحر اكبير يحيط بكل السواحل . وهذه الحركة تعادل حركة فرسان الاستبس أو حداة الابل فى وسط القارة . ففكرة البحر المحيط ، والوحدة البحرية هى التى هيأت الظروف للسيادة البحرية، وهى التى تعتمد عليها كل نظريات الاستراتيجية البحرية الحديثة مثل نظرية ماهان . وكانت نتيجة هذا التطور البحرى الكبير هى قلب العلاقة بين أوروبا وآسيا . وقد رأينا كيف أن أوروبا فى العصور الوسطى كانت

محصورة بين صحراء لا يمكن عبورها فى الجنوب ومحيط مجهول فى الغرب وفيافى جليدية أو غابية فى الشمال والشمال الشرقى ، ثم هى مهددة باستمرار من بابها الوحيد الذى يصلها بآسيا من الشرق ، والتفوق الكبير للفرسان وحداة الابل فى سرعة الحركة والانقضاض ، من سهول مكشوفة لا تعترضها بحار أو جبال أو غابات . أما بعد الكشف الكولومبى فقد خرجت أوروبا من هذا انحصار ، والتفت حول العالم ، وامكنها ان ترسى سفنها فى أى جزء من سواحلها ، وأصبحت تسيطر على ٣٠ ضعفا من مساحتها من الماء والسواحل ، وفرضت سيطرتها حول قوة أوراسيا البرية التى كانت دائما مصدر تهديد لها ، بل وأسست « أوروبا » جديدة عديدة فى الأراضى المكتشفة أو المفتوحة حديثا ، أو مايسمى بالعالم الجديد ، وأصبحت أمريكا وأستراليا توابع لأوراسيا كما كانت بريطانيا واسكنديناوه توابع لأوروبا . وأصبحت بريطانيا وكندا والولايات المتحدة وجنوب افريقية وأستراليا واليابان قواعد بحرية وتجارية للقوى البحرية الجديدة ، بعيدة عن متناول القوى البرية القديمة فى داخلية أوراسيا .

لقد برزت قوى الدول البحرية الجديدة نتيجة لعصر الكشوف الجغرافية . ولكن هل معنى ذلك أن قوة اليابس قد أفلت ؟ لا تزال قوة اليابس باقية . ولقد أكدت الأحداث الأخيرة ازدياد هذه القوة وتأكيدها ؛ فبينما كانت الدول البحرية الجديدة تجوب البحار ، وتنشئ المستعمرات معتمدة على قوة الأساطيل ، كانت روسيا تدفع الفرسان القوزاق من حدود غاباتها الشمالية ، نحو الشرق ، وسيطرت على الاستبس

وواجهت التار وأرغمت الرعاة على الاستقرار ، وبدأت في تغيير هذا الخضم الهائل من الحشائش في جنوب روسيا واقليم تركستان وسيبيريا الغربية . فالقرن الذي شهد توسع غرب أوروبا فوق البحار ، شهد أيضا توسع الروس من موسكو حتى سيبيريا . وكان اندفاع فرسان القوزاق عبر آسيا شرقا مليئا بالاحتمالات السياسية المستقبلية كما كان دوران السفن حول رأس الرجاء الصالح ، رغم انفصال كل من الحركتين عن الأخرى .

ولعل أكبر انشقاق حدث في أوروبا بين الشرق والغرب ، كان نتيجة فشل روما في صبغ اليونان بالصبغة اللاتينية ، ومن ثم نشأت الثقافة الغربية ، اللاتينية والثقافة الشرقية الاغريقية ، وكان الرومان أو الكنيسة الغربية الرومانية ، هم الذين حضروا التيوتون ، بينما الاغريق هم الذين حضروا الصقالبة ، والتيوتون ملاحو البحار ، والصقالبة فرسان الاستبس وقاهرو الطورانيين . ومن ثم تعمق الخلاف بين قوى البر وقوى البحر في معتقداتهم ، كما تعمق الخلاف بين القوتين في وسيلة حركتهم ومجال توسعهم . فالشرق والغرب ليس وليد اليوم ، ولكنه وليد ظروف تاريخية قديمة ، وظروف جغرافية فتحت أمام كل مجالا مختلفا ووسيلة مختلفة للتوسع والانتشار .

وعنده ، زادت منذ جيل<sup>(١)</sup> سرعة الدول البحرية في تنقلها عبر عباب الماء باكتشاف البحار وشنق قذة السويس ، مدت السكك الحديدية عبر قلب آسيا ، وقد أتى هذا الخط الحديدى

بالمعجزات ، لأنه فاق سرعة الحصان في الاستبس . بل وفاق السفن في نقل البضائع والسلع من المنتج الى المستهلك مباشرة ، بينا الطرق البحرية تحتاج الى أرصفة تصدير ثم أرصفة استيراد ثم مخازن مرة أخرى .

ويبلغ طول السكة الحديدية الروسية من قربالن غرب حتى فلاديفوستك شرقا ٦٠٠٠ ميل ، وإن وجود الجيش الروسى فى منشوريا لدليل على قوة الحركة البرية ، مثلما كان وجود الجيش البريطانى فى جنوب افريقية دليلا على القوة البحرية . ولا يزال هذا الخط مفردا ، غير مأمون العاقب باستمرار ، ولكن داخلية آسيا لن تلبث طويلا حتى تغطيها السكك الحديدية ؛ ولا يزال الفراغ الكبير بين روسيا ومنغوليا مشحونا بالاحتمالات ، فى السكان ، وزراعة القمح والقطن ، واستخراج الوقود والمعادن . ولا ريب أن هذا العالم الاقصادى فى وسط آسيا سوف ينمو بعيدا عن متناول يد التجارة المحيطية ، والتوى البحرية<sup>(٢)</sup> .

وبعد ، ألا يبدو من هذا العرض السريع لمجرى التاريخ أن هناك عاملا ثابتا ملحا من العلاقات الجغرافية يعمل باستمرار ؟ أليس هو هذه العقبة الكبرى التى تتركز عليها سياسة العالم ، هذه المنطقة الشاسعة من قلب أوراسيا ، التى لا تصل إليها سفن المحيط الآن ، والتى كانت مسرحا لكر الفرسان وفرهم ، والتى لن تلبث طويلا حتى تغطيها شبكة السكك الحديدية والطرق ؟

(٢) حققت الثورة البلشفية هذه النبوءة الى حد

(١) بالمراسل الى وقت تأليف الكتاب .

هنا - في قلب آسيا - تكمن احتمالات قوة برية واقتصادية تفوق كل تصور : لقد حلت روسيا الآن محل الامبراطورية المغولية ، ولقد بدأت تدرس ضغطها على فنلندا واسكنديناو ، وبولندا وفرنسا بل والهند والصين . فهي ليست سوى حركة مركزية صادرة عن مراكز ردة الاستبس . هي بالنسبة لعدم جعل المركز المتوسط لآسيا في أوروبا . تستطيع أن تضرب في كل اتجاه ، وتستقبل الضربات من كل اتجاه ما عدا الشمال . ولن تغير أى ثورة اجتماعية فيها من هذا الاتجاه . ولقد أدرك حكمها مصدر قوتهم ، وزهدوا في امتلاك الأسد . أو أى أرض أخرى خرج نطاقهم البرى ، كما تدرك بريطانيا ضرورة سيادتها على البحار .

ينقسم العالم اذن من وجهة النظر الاستراتيجية الى ثلاثة قطاعات :

١ - منطقة القلب أو مركز ثقل العالم Pivot Area ، وتشمل معظم الاتحاد السوفيتى الآن .

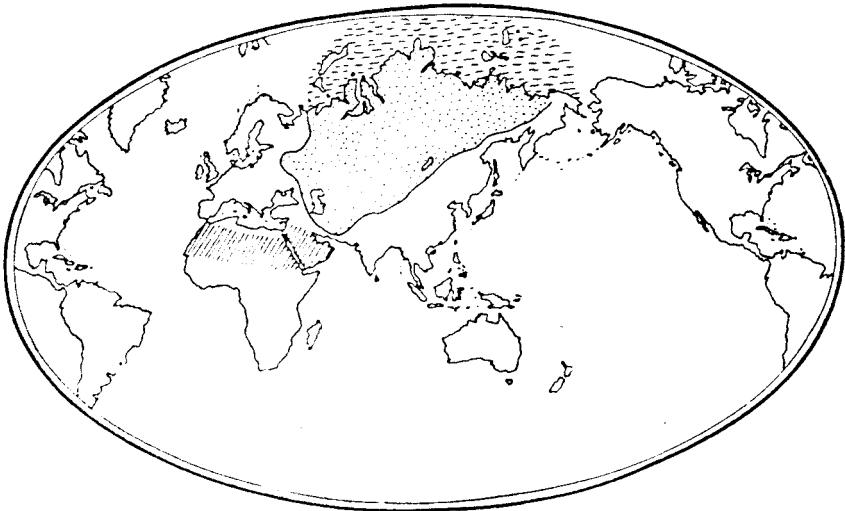
٢ - منطقة الهلال الهامشى الداخلى Interior Marginal Crescent ويشمل آسيا والنمسا وغرب أوروبا وشرق الأدنى والهند والصين .

٣ - منطقة الهلال الخارجى أو الجزرى Outer or Insular Crescent وتشمل الأمريكتين وجنوب افريقية واستراليا . ( انظر الخريطة المرفقة )

ان قلب العالم قارى ، وأطرافه جزرية ، وبينهما منطقة انتقال وسطى ، وهذه المنطقة الوسطى هي التي يمكن أن ترجح احدى الكفتين على الأخرى . وتتصارع كل من القلب القارى والأطراف الجزرية ، أو الدول القارية والدول البحرية ، على منطقة الوسط هذه ، فاذا تم لاحدهما تلك السيطرة، خلصت له السيطرة على العالم .

” انى أود أن أهمس في أذن الجالسين في مؤتمر الصلح بباريس :

من يحكم أوروبا يتحكم في قلب العالم .





من يحكم قلب العالم يتحكم فى جزيرة العالم .

من يتحكم فى جزيرة العالم يحكم العالم ، (١) .

ولقد كان ماكندر متنبأ عام ١٩٠٤ حين قال ان ميزان القوى فى صالح قلب العالم نتيجة لتوسعه فوق الاراضى الهامشية فى أوراسيا ، وأن هذا سيمكنه من السيطرة على موارد اقتصادية هائلة ، ستمكنه من بناء الأساطيل ، واذا تم له ذلك ، فلن يكون اليوم بعيدا الذى تضم فيه العالم امبراطورية واحدة ، وربما تحقق هذا اذا تحالفت ألمانيا مع روسيا ، ولقد امتد به الأجل ليعيد نفس النبوءة مرة أخرى أثناء الحرب العالمية الثانية كما سبق أن ذكرنا .

#### أثر ماكندر فى الجغرافيا السياسية :

لم يكن ماكندر هو أول من كتب فى الاستراتيجية العالمية ، أو فى الجغرافيا السياسية ، فقد سبقه الفرد ماهان ( ١٨٤٠ - ١٩١٤ ) ويعتبر كتابه « أثر البحر البحرية فى التاريخ » ( ١٨٩٢ ) أهم كتاب عبر فيه عن آراء فى الاستراتيجية العالمية ، ويظهر فى كتاب ماكندر أنه قرأ ماهان بل وتأثر به .

غير أن كتب ماهان كان متأثرا بالظروف الدولية التى كانت تسود العالم عند نشرها . ورغم أن هذه الظروف لم تتغير وقت أن كتب ماكندر مقاله فى مجلة الجمعية الجغرافية عام ١٩٠٤ ، أو كتابه عام ١٩١٩ . إلا أنه كان من نفاذ البصيرة وسداد الرأى . وبعد التفكير بحيث أدرك الظروف القارية التى تلعب دورها التاريخى

كما أدرك الظروف البحرية أيضا . فلم تسكره نشوة النصر « البحرية » عن رؤية القوى الكامنة فى قلب العالم القارى ، رغم خروج روسيا منهزمة من الحرب العالمية الأولى .

وقد أثر كتاب ماكندر فى التفكير السياسى فى الولايات المتحدة وألمانيا ، فراجع نيقولاس سبيكمان ، أستاذ العلاقات الدولية بجامعة ييل آراءه ، وحاول أن يقلب ميزان القوى فى رأى ماكندر ، وقال ان « من يتحكم فى إقليم الحافة ، يتحكم فى أوراسيا ومن يتحكم فى أوراسيا يسيطر على العالم » (٢) .

أما تأثيره فى ألمانيا ، فكان عميقا : فيكفى أنه كان مثيرا لنشأة علم جديد هو الجيوبوليطيقا Geopolitics (٣) ، فى ألمانيا على يد كارل هوسهوفر ( ١٨٦٩ - ١٩٤٦ ) وهو سياسى وجندى ورحالة وجغرافى ألماني ، كرس حياته لخدمة الاشتراكية الوطنية الألمانية ( النازى ) . واشترك مع أوتو مال فى إنشاء مجلة الجيوبوليطيقا التى أخذت فى دراسة أقليم العالم دراسة جغرافية ، طبيعية وبشرية واقتصادية ، بغرض جمع المعلومات اللازمة عن أقليم ستقع فى نطاق الغزو الألمانى يوما ما .

وقد وضع هوسهوفر آراء ماكندر فى السيطرة على قلب العالم نصب عينيه ، ولذلك نصح بالتحالف مع الاتحاد السوفيتى من جهة ، وبالسيطرة على وسط أوروبا من جهة أخرى ، ومن ثم تستطيع ألمانيا أن تسيطر على بقية القارة الأوروبية . ولم يغب عن هوسهوفر لحظة واحدة

(١) Nicholas J. Spykman : The Geography of the Peace, 1944, p. 43.

(٢) الجيوبوليطيقا هى العلم الذى يسخر حقائق

الجغرافيا لخدمة أغراض الدولة الاستراتيجية .

الدرس الذى تلقاه نابليون فى روسيا ، ولذلك كان يبحث لألمانيا عن مفر من أن تقع بين قراصة البحر وفارسان البر . وهذا ما لم تستطع أن تتحاشاه فى أواخر الحرب العالمية الثانية .

ان آراء ماكندر لا تزال محل الدراسة حتى الآن . بل والتطبيق أيضا . فإذا وضعنا الولايات المتحدة محل بريطانيا وغرب أوروبا ، سيدة البحار ، وإذا اعتبرناها القوة البحرية الهامشية الكبرى التى تحيط بجزيرة العالم فاننا نستطيع بسهولة أن ندرك الصراع بين قوى البحر الجديدة ( الولايات المتحدة ) وقوة البر العملاقة التى تحتل قلب العالم . وليست سياسة الأحلاف وانشاء القواعد العسكرية ، الا وسيلة

لتطويق هذا القلب ، نتيجة أن يسيطر على بقية جزيرة العالم ويصبح وجها لوجه مع قوة الأساطيل البحرية .

هذا هو الواقع الذى رسمه ماكندر لعالمنا المعاصر . والذى تحاول الأمم أن تنال حربتها فى إطاره ، فهل سيتصادم التين البحرى بالدب الروسى ، أم ستتعايش قوة البر وقوة البحر أيا كانت الاجابة عن هذا السؤال ، فعلىنا أن نتذكر أن منطقة الوسط ، ومنها اقليم الشرق الأدنى ، ستكون العامل المرجح لاحدى الكفتين على الأخرى .

الدكتور محمد السيد غلاب